

بوغالم جمال⁽¹⁾

في حوار أجرته مجلة المشروع الفرنسية مع الفيلسوف الفرنسي المعاصر ميشيل سير عن مدى تأثره بفلسفة باشلار فأجاب : «غاستون باشلار كان أستاذاً عندما كنت أنا طالباً في الجامعة، وكنت في تلك الفترة أراه متأخراً جداً عن ركب العلم المعاصر، في الرياضيات مثلاً، وفي الفيزياء أيضاً. كنا نشعر وكأننا نتعلم في الصفّ فلسفة الجيل الذي سبقنا، فيما الرياضيات كانت تقول شيئاً مختلفاً تماماً وكذلك الفيزياء».⁽²⁾

ويقول كذلك « إن العقل العلمي الجديد كان يركز على فلسفة النفي أما العقل العلمي الجديد- الجديد، فيتطور إلى فلسفة للنقل والتقاطع، إنه مبادرة وتوقيف، إن هذه الفلسفة تتحدث عن العلوم ولكنها تسكت عن العالم الذي تعبر عنه العلوم أو تؤسسه وعن عالم الأشياء وعن عالم الناس».⁽³⁾ من خلال هذا الكلام يتبين لنا أن ميشيل سير يتبنى تصوراً جديداً للعقل العلمي الجديد أو ما يسميه بالجديد الجديد^(*) أو المتجدد (le nouveau nouvel esprit scientifique) عقل مابعد العقل العلمي الباشلاري فإذا كان العقل العلمي الجديد كمفهوم باشلاري، يعبر عن فلسفة القطيعة والتجاوز، فإن العقل العلمي السيري يتطور إلى فلسفة للنقل والتقاطع تبرز لنا من خلاله أفعال النقل التي تتم بين حقول المعرفة العلمية فهو يبحث عن طبيعة التقاطعات والتفاعلات بين هذه الميادين وكيفية حدوثها، وبإيجاز العقل العلمي الباشلاري قطائعي تجاوزي أم العقل العلمي السيري تواصلية تفاعلية. إذا كان عقل باشلار يبحث عن لحظات القطيعة فإن عقل سير يبحث في لحظات التقاطع بين العلوم.

الاختلاف إذا جلي بين المفهومين، وتروم هذه الدراسة المتواضعة أن تكون مدخلاً أولياً للوقوف على خصائص العقل العلمي الجديد مابعد الباشلاري كما يتصوره ميشيل سير .

ميشيل سير.. واحد من الوجوه الثقافية البارزة في فرنسا، توزع نشاطه الفلسفي بين التأليف والتدريس في الجامعات الفرنسية والأمريكية، فقد ألف ما يربو عن خمسين مؤلفاً من أشهرها سلسلة هرمس في خمسة أجزاء وكتاب العقد الطبيعي الذي نشر سنة 1990، يتميز بكتاباته الفلسفية المتنوعة، وبأحاديثه التي تنقلها قنوات التلفزيون ووسائل الإعلام من صحف ومجلات، وتعتبر قضية العنف في العالم محورا رئيسيا من محاور فكره الفلسفي، فهو يبحث في العلاقة بين العلم وغاياته، ويشكل كتاب " العقد الطبيعي " (le contrat naturel) صرخة يطلقها ميشيل سير ضد الاضطراب والعنف الذي يفسد علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع، فهو « يحاول فتح آفاق جديدة في علاقة الإنسان بالطبيعة وذلك بإقامة عقد يحدد ثوابت العلاقة بينهما، فإذا كان روسو أحدث ثورة في تنظيم العلاقة بين البشر، وأعاد الاعتبار للإنسان، لعقله، لإرادته، لقدرته على تنظيم حياته، فإن سير يهدف هنا إلى رد الاعتبار للطبيعة والحفاظ عليها وتنميتها، بوصفها تشكل بعدا علائقيا مهما في حياة الإنسان»⁽⁴⁾ إنه يتأسف لصور تعاملنا مع الطبيعة التي تم تقطيعها إلى أجزاء وميادين مستقلة عن بعضها البعض، وكأنه لا يوجد ما يجمع بينها ويدعو إلى نظرة جديدة تتحكم في تحكمنا وسيطرتنا على الطبيعة.

إذا كان لكل فلسفة منبع تنحدر منه و أساس تستند إليه أو موقف تتأثر به، فماهي الروافد الفلسفية والعلمية التي أثرت في نشأة الفلسفة التواصلية عند ميشيل سير ؟

في هذا السياق سنركز حديثنا على ثلاثة روافد أساسية وهي:

1/- نظرية الفوضى (الكاوس): نظرية الفوضى هي امتداد لقانون الأنشروبيا في الديناميكا الحرارية* إنها تمنح طريقة جديدة للتفكير في المعلومات القديمة، خصوصا تلك التي أهملت بسبب خروجها عن المؤلف، واقتنع العلماء بأن الإفراط في تفريع التخصصات علميا يشكل عائقا أمام بحوثهم، فمن العبث في رأيهم التركيز على الأجزاء بمعزل عن الصورة الكلية، فنظرية الكاوس أنهت الأسلوب الاختزالي في التفكير العلمي وأقنعت كل أولئك العلماء بأنهم يساهمون في ولادة علم جديد، سواء تخصصوا في البيولوجيا أو الرياضيات أو الفيزياء، أيا كان حقل اختصاصهم، فإن مهمتهم تتمثل في فهم التعقيد كظاهرة في ذاتها .⁽⁵⁾

إنها نظرية عن الطبيعة الكلية للنظم، استطاعت أن تجمع مفكرين من حقول علمية اعتبرت متباعدة تقليدياً، فإذا كانت أزمة العلم بسبب توزيعه إلى اختصاصات تتفرع منها اختصاصات أخرى فإن نظرية الكاوس غيرت تلك الصورة جذرياً، حيث سارت بالعلم في الاتجاه المعاكس، وسعت إلى « صوغ معادلات رياضية بسيطة لكي تشرح مظاهر كبرى وعنيفة مثل الشلالات، ورصدت ظاهرة قوامها أن حدوث تغيرات بسيطة في المعطيات الأولية التي تتعامل معها تلك المعادلات، تفضي إلى نتائج هائلة عند الحساب النهائي وسمت نظرية الكاوس تلك الظاهرة، الاعتماد الحساس على المعطيات الأولية، وسرعان ما اشتهرت باسم أثر جناح الفراشة ⁽⁶⁾ ويمكن القول بلغة توماس كون الثورية أن نظرية الفوضى تمثل براديغما جديداً، فإذا كانت نظرية النسبية تبدد فكرة الزمان والمكان المطلقين عند نيوتن، وأطاحت فيزياء الكم بالقياسات الدقيقة والمضبوطة لها، فإن نظرية الفوضى بددت إمكان التوقع الحتمي والمحكم .

الفكرة التقطعها، ميشيل سير، لتكون برهاناً علمياً وسنداً قوياً يؤكد مسار التواصل بين التخصصات العلمية والمعارف الإنسانية بصفة عامة .

2/ تأثره بفلسفة ليبنتز: من الروافد الفلسفية التي شكلت فلسفة سير التواصلية تأثره بالفيلسوف ليبنتز وفكرته حول اتصالية المعرفة، فأول كتاب لسير كان حول " فلسفة ليبنتز ونماذجها الرياضية " وهو في الأصل أطروحة تقدم بها لنيل الدكتوراه في الفلسفة، لكن ما الذي دفعه إلى اختيار هذا الفيلسوف بالذات ؟. يقول سير «ليبنتز كان مثيراً للاهتمام بالنسبة لي، لأنه الأول الذي أعطي هوية فلسفية دقيقة لمفهوم الاتصال ولمفهوم شبكة الاتصالات، كان لديه تصور عن أن العالم مكون من شبكة اتصالات. وكان أول مقال فلسفي لي عن مفهوم شبكة الاتصال عام 1961، ثم واصلت الاهتمام بقضية الاتصال عبر كتيبي عن 'هرمس' وهو إله الاتصال عند الاغريق» ⁽⁷⁾ إذا فكرة الاتصال بين العلوم لها امتداد فلسفي، ويجد ميشيل سير ضالته مع ليبنتز الذي كان يرى أن لكل العلوم أصولاً جوهرية مشتركة، وعندما يتمكن الإنسان من تشكيل علامات تدل على هذه الأصول يكون بذلك قد أتم موسوعة العلوم. واستعان ليبنتز بالرياضيات والجبر ونفس الشيء بالنسبة لميشيل سير الذي رأى في بورباكي نموذجاً رياضياً جيداً - كما سنرى لاحقاً - والذي كشفنا له عن دور العلامات في المنهج العلمي. وأكد في بحوثه الرياضية على أن الحساب العالمي للاستدلال العقلي يمكن أن يكون اختراعاً مفيداً في تحقيق منهج آلي يتم فيه حل كل المشكلات التي يعبر عنها باللغة العالمية، ونادى بإنشاء لغة علمية عالمية يمكن بواسطتها تمثيل كافة التصورات العلمية، وذلك من خلال التوافق والتأليف بين الرموز العقلية . فبعدما رأى أن لغة العلم أخذت تتململ بتعدد اللغات، فكر في جمع "ألف باء" الفكر الإنساني، وحصر الأفكار المركبة. وإذا ما تمَّ له ذلك، وضع لكل فكرة رمزاً يعبر عنها ويدلُّ عليها، ويوم أن يتفق العلماء على هذه الرموز، تصبح لغتهم المشتركة التي يتفاهمون بها، ويلتفون عندها. طموح بمثله، يتجلى عند سير لما يبحث عن لغة مشتركة، من خلالها يمكن إقامة حوار بين الجهويات العلمية وميادين الثقافة المختلفة وهذه اللغة هي الرياضيات، فهو يريد حواراً بين العقل والحواس، بين العقلاني والواقعي، الفلسفة والعلم، العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية، ويحاول أن يقدم رؤية جديدة لتواصلية العلوم في صورة شبكة اتصالات متأثرة في ذلك بعصر المعلومات ونظرية المعلومات، «نظرية المعلومات بنت الفيزياء والاحتمالات» ⁽⁸⁾

3/ تأثره بجماعة بورباكي: يعلن سير صراحة أنه نحل من جماعة البورباكيين في الرياضيات فماذا عن هذه عن هذه الجماعة الرياضية؟ بورباكي اسم إغريقي استعارته جماعة من الرياضيين الشباب للتستر وراءه، وكان يتكون هذا الفريق من خريجي كلية المعلمين العليا في باريس، من حوالي عشرين عضواً جلهم فرنسيين ولا تتجاوز أعمارهم خمسين سنة ويستقيل كل عضو من الجماعة إذا تجاوز هذا السن حيث يتحدد أعضاء الفريق بالانتخاب، وسر ذلك اعتقادهم أنه قلما نجد نظرية رياضية جميلة يكتشفها صاحبها وهو في سن الستين. ومن أبرز البورباكيين نجد:

جون دالزرت : (1903 - 1968)، دارت أعماله حول نظرية الأعداد والتوابع الخاصة. هنري كارتان: كانت له مساهمات أساسية في مجال الجبر، ابتكر الحساب التفاضلي الخارجي مع هنري بوانكاريه،

جون ديودوني: (1906 - 1992)، من أغزر المؤسسين إنتاجاً وتأليفاً في مختلف التخصصات الرياضية .

أندري فاي : (1906 - 1998) كان له دوراً بارزاً في إدارة فريق بورباكي دارت أعماله حول نظرية الأعداد والهندسة الجبرية، كلود شوفاليي (1909 - 1984) دارت أعماله حول نظرية الأعداد .

وظهر أول عمل لجامعة بورباكي في سنة 1939، وفي سن 1948 نظم الفريق حلقة سنوية من 18 جلسة، تهدف إلى عرض أحدث النتائج في الرياضيات والتي يراها بورباكي أنها ذات أهمية، علما أن العروض تجاوزت 500 عرضا وتم نشرها وهي تشكل موسوعة للعلوم الرياضية لكن ما هي الأهداف العلمية التي تأسست لأجلها هذا الجامعة ؟

إن هدف الفريق هو إعادة كتابة الرياضيات على أسس صلبة بعدما كثر التخصص و تشعبت مسالك العلوم الرياضية يقول ديودوني « لقد كانت للرياضيين الفرنسيين من جيلي مناسبات، خلال أولى احتكاكاتنا بالخارج، جعلتنا ندرك كم كنا نجهل التطورات الحاصبة التي جددت آنذاك الجبر والتبولوجيا والتحليل الدالي في ألمانيا وبولندا وروسيا، وكنا نتمنى أن تستعيد الرياضيات الفرنسية عالميتها التليدة»⁽⁹⁾ وكان الهدف كذلك البرهنة على وحدة الرياضيات بإبراز الهياكل الأساسية التي تشترك فيها مختلف فروعها، حيث أقدم بورباكي على عرض مختلف المفاهيم بأخذ الرياضيات من منطلقها في ترتيب منطقي، وكانت طريقة العمل تقوم على تكليف كل عضو من أعضاء الفريق بإيجاد الأرضية المناسبة لنظرية أو عدة نظريات رياضية، ويجمعون لتبادل وجهات النظر في المسائل التي تحتاج إلى النقاش ومن الثمار التي أفرزها هذا العمل الجماعي، إصدار سلسلة من الكتب بعنوان أصول الرياضيات وهو شبيه بعنوان كتاب إقليدس الشهير أصول إقليدس⁽¹⁰⁾.

بهذا العمل يرى النقاد والدارسون أن فريق بورباكي استطاع إعادة عرض الرياضيات بأخذها من نقطة إنطلاقها المنطقية وليست التاريخية، وإعادة بنائها مواد بناء أجريت عليها كل التجارب والتحليل التي تضمن صلاحيتها . هذا على الرغم من الانتقادات التي وجهت للفريق لإفراطه في النظرة التجريدية مما يصعب من دراسة الرياضيات. ولا يخفي، سير، تأثره الشديد بهذا العمل الرياضي وأراد أن يجد له شبيهها ليس بين فروع الرياضيات فقط وإنما بين مختلف فروع المعرفة العلمية والإنسانية.

التواصل والتفاعل أبرز خصائص العقل العلمي الجديد - الجديد إذا كان ميشيل سير يؤمن بالتعدد والاختلاف بين العلوم فهو لا ينكر التخصصات العلمية بل إن فلسفته «تدعو إلى المتعدد والتعدديات، تفسح في المجال للممكن والممكنات فالفلسفة السيرية ترى أن التاريخ هو تاريخ الشجار والنزاع»⁽¹¹⁾ إنه لا يشذ عن خط الفلسفة المعاصرة مثلما نجده عند ميشيل فوكو وجيل دولوز. وهو يرفض الحديث عن العلم بألف التعريف كما كان الأمر في العلم والفلسفة الكلاسيكيين، مثل ما نجده عند ديكايرت الذي يرى إن كل العلوم ليست شيئا آخر غير الحكمة الإنسانية، التي تظل دائما واحدة ودائما هي نفسها، مهما كانت المواضيع التي تطبق عليها والتي تتلقى تغييرا من هذه المواضيع أكثر مما يتلقاه ضوء الشمس من تنوع الأشياء التي يضيئها، لكن هذا التصور غير صحيح في نظر سير وتعدد العلوم نقضا، وأصبح كل علم تقريبا يتضمن تحته علوما جزئية فظهرت الاختصاصات داخل العلوم، لكن بالرغم من التعدد والاختلاف يلاحظ أن هناك تفاعلا بين قطاعات المعرفة العلمية وبدأ يحدث التزاوج بين العلوم المتفرقة كما هو الشأن في السيبرنتيقا (sybernetique) حيث تتفاعل مجموعة من العلوم بالمنطق الثنائي ونظرية الدوائر الكهربائية والفيزيولوجيا العصبية.

إن رؤية سير لوحدة الجهويات العلمية تتم انطلاقا من فعل النقل فالعلوم التي كانت تبدوا متنافرة بدأت تتقارب فيما بينها وتكون مجموعات ثنائية كالكيمياء والفيزياء، الفيزياء والرياضيات، الكيمياء وعلم الأحياء، والتي أنتجت عند التقائها الكيمياء الفيزيائية والفيزياء الرياضية والكيمياء الحيوية . هذا الالتقاء يحدث انطلاقا من فعل النقل للمفاهيم والمناهج من علم لآخر إنها عملية تصدير واستيراد، ترجمة ونقل كما يعبر عنها سير، ان الوحدة العلمية التي يدعوا إليها تهدف إلى تأسيس أنسيكلوبيديا أو موسوعة علمية تقوم داخلها شبكة من العلاقات بين المفاهيم والمناهج والمواضيع وبذلك يصبح الاختراع أو الاكتشاف مجرد ترجمة . إن كل علم يحتضن عدة علوم جزئية أو فرعية، لكن مع وجود ترابط فيما بينها فهي ليست فروعاً إنقطاعية مغلقة في التخصص بل تواصلية يلعب فيها الحوار والتبادل دورا محوريا وأساسيا إنها تتجاوز الثنائيات الكلاسيكية المتناقضة المعروفة كالعقلاني والواقعي، المجرد والمشخص، والتي كانت الفلسفة الكلاسيكية تركز عليها في بناء سُلّم للعلوم، إذا كل شيء يصبح نسبيا داخل موسوعة العلوم، هذا هو التصور السيري لفكرة الوحدة بين العلوم والذي يعتبر صلب الفلسفة الاتصالية عنده. يقول « إن هذه العلاقة - بين مختلف المعارف - كانت دائما في مركز إهتمامي.. في سنة 1961 قلت أن الاتصال سيكون العمود الفقري لعالم الغد » .

إن الحديث عن الاتصال و التفاعل بين النظريات يقودنا إلى الحديث عن الحدود بين العلوم ونظام ترتيبها، إذ يرى سير أن روابط التفاعل وعلاقات التداخل بين الجبهويات العلمية تؤكد خطأ وتهاافت الترتيب الهرمي للعلوم كما نجده عند أوغست كونت، الذي يعتمد على معيار التعقيد المتزايد والتعميم التنازلي، فرتبها من الأدنى إلى الأعلى من حيث درجة تجريدها وتعقيدها. وجعل كل علم يؤسس لما بعده كما يلي:

- الرياضيات: أولى العلوم وعمودها الفقري ولغتها.
- الفلك: يقوم على الحسابات الرياضية.
- الفيزياء: حاصل علمي الفلك والرياضيات في الأساس.
- الكيمياء: تستند إلى معطيات الفيزياء وما قبله.
- البيولوجيا: ذروة ما سبقها من عناصر طبيعية وفيزيائية وكيميائية.

السوسولوجيا أو «الفيزياء الاجتماعية» في تعبير كونت، ذروة السلسلة قاطبة وما بلغته من مباحث ونتائج. "إن النظام العقلاني للمعارف، كما ظهر بواسطة الفلسفة الوضعية يأخذ شكل علاقة اعتماد وسلطة ... وبقدر ما يحتل علم من العلوم وضعاً متدنياً وبعيداً في السلسلة، بقدر ما الظواهر التي يدرسها هي خاصة معقدة، صعبة وتنتمي هكذا إلى دراسة الظواهر الأكثر عمومية، الأكثر بساطة والأكثر تجريداً والتي تماثل العلوم التي تسبقها في التصنيف» . يتبين لنا أن التبعية الموجودة بين حلقات سلسلة العلوم غير قابلة للعكس والارتداد ووضع النظام الهرمي للعلوم يأتي من النظر إليها بصفاتها سلسلة متصلة، تتجه نحو غاية معينة . لكن هذه الفكرة لا تلقى قبولا في العلوم المعاصرة التي أصبحت أكثر بساطة من العلوم الماضية كما يؤكد ذلك باشلار، حيث يمكننا القيام بفعل تراجعى في تاريخ العلم. إن العلم المعاصر يهدم التصنيف الوضعي للعلم الذي أسسه كونت على أسس يقينية ووثوقية، فالعلوم التي كان ينظر إليها باعتبارها كبيرة تفرعت إلى علوم جزئية ونشأت فيما بينها علاقات وكسرت الحدود المرسومة لها بل نشأت علوم جديدة من ترابطها وتكاملها كالتسبرنطيقا التي نشأت من تضافر مجموعة من العلوم وأدت إلى نشأت علم آخر جديد يسمى الاعلاميات .

إن فكرة تصنيف أو ترتيب العلوم تؤدي بنا في نظر سير إلى خلق علم تصنيفي يكون علم العلوم أو العلم الملكي، لكن إيجاد مثل هذا العلم المصنف يطرح إحراجا إذ سيكون علما ومن ثم يكون من اللازم تصنيفه مع باقي العلوم التي يصنفها، مما يتطلب بدوره علما آخر يصنفه، فنقع في دور ليس له نهاية، يقول سير «إن من يتكلم عن النظام هو داخل النظام أو أن حديثه سيء التكوين، إما أن علم العلوم هو واحد منها مضافا إليها مقسما، وإما ليس علما إنه سياسة».(12) النقد ذاته ينطبق على إيمانويل كانط، حيث يرى سير أن التناقض الموجود عند كونت في تصنيف العلوم يوجد عند كانط في قوله بوجود علم خاص يسميه نقد العقل الخالص «النقدية تزعم نفس الوضع يوجد علم خاص يسمى نقد العقل الخالص».(13)

إن العلم الملكي أو علم العلوم يترتب عنه أن يكون التقاطع بين العلوم فارغا وهذا غير صحيح في نظر سير، لأن تقاطع العلوم تنشأ عنها علوما جديدة كما تمارس العلوم فيما بينها تصديرا واستيرادا للمناهج والمفاهيم، نجد الكيمياء مثلا استوردت منهجها من الفيزياء، كما يصبح الحديث عن علم أكبر وأقدر من علم آخر حديث بلا معنى من وجهة نظر سير، فالعلوم كلها تتقارب وتتفاعل مع بعضها داخل الموسوعة العلمية التي تسير نحو الوحدة. إن كل علم هو علم العلوم لأنه مفتوح على باقي العلوم ويتعامل معها من خلال فعل النقل والتصدير والاستيراد وفي نفس الوقت كل علم يدير نوعا مستقلا من الحقيقة داخل نسقه أو نظامه الخاص، هكذا تصبح كل جبهة علمية فلسفة عامة من جهة انفتاحها على باقي الجبهويات العلمية وفلسفة خاصة أو انعكاسية من جهة ممارستها وتمازجها الخاصة.

ما نستنتجه مع سير أن التفاعل فعل ينتشر عبر كل الاتجاهات في العلاقة بين العلوم وإن كان هناك من يرفض هذه التفاعلات فهذا خطأ فظيع في المنطق - على حد قوله - شأنه شأن الخلط بين التقاطع (Intersection) والاتحاد (réunion) وقاده ذلك إلى الترجمة بين ميادين متغايرة ومتنافرة في محاولة لإنشاء ممرات / معابر (مثلا ممر الشمال - الغرب) بينها إنه المعبر الذي يحاول أن يكسر الحدود بين العلوم الانسانية والعلوم الدقيقة، فهو يرى أن هناك فنا تركيبيا ونسقا لاتصال الماهيات، بل هناك لغة مشتركة تتناولها العلوم»، لقد لقيت العلوم الإنسانية سلسلة من النجاحات لم يكن بمقدور أحد التنبؤ بها، حيث احترقت فجأة بمجموعة من المناهج أعطت دلائل قاطعة في مجالات تعرف عادة تحت الاسم الأصيل للعلوم « إن مفهوم النقل والتحويل والتصدير والاستيراد، مفاهيم تلغي وتنفي فكرة المرجعية التي

اعتمدها الفلاسفة كـمـعيار لتصنيف العلوم . بل ان الاتصال يمتد إلى ميادين الثقافة المختلفة كالـفـنـون والآداب والشعر وحتى الأسطورة، فالأساطير مليئة بالمعرفة، ويؤكد سير، «أنه في تاريخ الفيزياء كان لوكريتيوس قد توقع إطار الفيزياء الحديثة لا بل استبقه. إن كتاب في طبيعة الأشياء قد اعتبر تقليدياً قطعة شعرية تكاد لا تمت بصلة إلى العلم الحديث. ولكن سير يحاجج قائلاً : إنه من الواضح أن الاضطراب بكل أنواعه أساسي بالنسبة إلى نظام لوكريتيوس إن فكرة (كلينامن)، (clinamen)- تغييرات لامتناهية في مسار الجسم أو الشيء - التي يطرحها لوكريتيوس، تستبق نظرية الأنثروبيا، أو اللاترتيب، التي ظهرت في الفيزياء الحديثة». (14) وأكثر من ذلك يحاول ميشيل سير أن يبرهن بأنه من الممكن إنتاج نوع من الرياضيات على ضوء كتابات لوكريتيوس في القرن الأخير قبل الميلاد.

يضعنا ميشيل سير أمام مفهوم آخر كإطار لتفاعل العلوم والثقافة إنها موسوعة العلوم أو الإنسكلوبيديا والتي تتسم بالانظام في نسقها الداخلي يقول سير «إن التراكم يرافق مولد الموسوعة الجديدة، إن سعادة العلوم هي لا نظام». (15) إن لوحة العلوم تتصف بكونها عامة وموسوعية، تتطابق مع صورة العلوم في العصر الحاضر فالمعارف سيل متوحد، وغمر واحد وليست مجموعة من الجداول المتفرقة والقول بأن علما ما مستقل عن غيره هو نفي له. لكن سير لا يقصد بفكرة الموسوعة وحدة العلوم وتطابقها والتي ظهرت عند السابقين من الفلاسفة والعلماء والمفكرين، لأن هناك تعددية وتبعثر بين المعارف والعلوم، إن هذا الانفجار والانفصال يمكن أن يفسح المجال لتواصل ممكن إن الانسكلوبيديا تتضمن مجموعة من العلوم التي تتفرع إلى تخصصات وفروع يجمع بينها ترابطاً وتفاعلاً. يسعى هذا البراديعم المكون إلى أن يصير نسقاً، إنه نسق للمعرفة أو على الأقل للمناهج. إن النزعة اللابينية (نسبة إلى لينتز) الجديدة تمنح نفسها، مثلها مثل القديمة، أفقاً للكونية بالارتكاز على الاختلافات. إضافة إلى ذلك، يتعلق الأمر أساساً بمسار مترابط يعبر الموسوعة على شكل متعامد مع كل تقسيم العلوم تلك هي صورة المعرفة في دائرة الموسوعة السيرية.

لكن ماهو نوع العلاقات التي تسود بين المفكرين والعلماء داخل الشبكة التواصلية وكيف تكون العلاقة بين الذوات العارفة؟. إن المفكر داخل الشبكة السيرية ليس له مكان ثابت فهو من دون وضع، يتحرك وينتقل، إنه هنا وهناك يفضل حالة الضياع في الشبكة حتى يدركها كما هي، إن المفكر يسير وينسج سيره إنه غير مرجعي في سكون وفي حركة، نسبي ومطلق: نسبي في علاقته بالشبكات التي يوقفها، ويفهم تلك التي يكونها، يعي ويعيش عالم التفاعلات «إن العالم داخل الشبكة الاعلامية متجاوز لفكرة المرجعية أنه بدون مرجعية، لا يدري اتجاهه، خلافاً للفلسفة الكلاسيكية التي تؤسس الفكر على نقطة أو مرجعية ثابتة، نجد ذلك عند ديكرات وكانط ولينتز وغيرهم من فلاسفة وعلماء العصر الحديث، وإذا كان مفهوم المرجعية يشير إلى هنا - الآن، فإن الشبكة تحيلنا إلى أشكال أخرى من العلاقات هنا - هناك، هو نفسه - الآخر. (16) إن العالم أو المفكر منغمس في المكان المتعالي للتواصل يقول ميشيل سير: «إننا نفكر إذن عبر التوقيف، إنني أفكر عبر التوقيف ومن خلال الإقرار الاتفاقي للتفاعل الذواتي من أنا (...) إنني موقف للنحن، إن الوعي هو المعرفة التي تكون ذاتها هي جماعة النحن، إن التواصل يخلق الانسان، إن بإمكان الانسان أن يقلصه وليس إقصاءه من دون أن يقضي نفسه» (17) يعني ذلك أن المفكر يصبح عقدة من التلقي والارسال والتبادل داخل الشبكة.

ختاماً لهذه الدراسة يتبين لنا أن سير يسعى لإقامة حوار بين مجالات العلوم المختلفة وميادين الثقافة المتنوعة، فهو يريد حواراً بين العقل والحواس، بين العلوم الصورية والعلوم التجريبية، بين العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية ويحاول أن يقدم رؤية جديدة في ذلك، متأثراً بعصر المعلومات ونظريات العلم المعاصر (نظرية الشواش أو الفوضى، نظرية المعلومات، نظرية الأشكال). ومن خلال تتبعنا لملامح الفلسفة السيرية كمفاهيم للاتصال والتفاعل بين العلوم يمكننا أن نستخلص نتائج البحث الآتية:

- يتبنى ميشيل سير فلسفة للتفاعل والتقاطع بين العلوم، هي بمثابة روح علمية جديدة ثانية تتجاوز الروح العلمية الباشلارية التي تتأسس على فعل النفي والقطعية والجدل والتجاوز بين الأنساق العلمية المختلفة، إلى روح علمية سيرية تدعو إلى التواصل والنقل بين مختلف التخصصات وحقوق المعرفة العلمية، فغرض هذه الفلسفة هو البحث عن نقاط التقاطعات والاتصال بين ميادين المعرفة المختلفة.

- إن خاصية التفاعل بين العلوم تتطور إلى تفاعل بين الذوات العارفة، أو ما يسميه سير، النحن، إنه تفاعل داخل الشبكة الإعلامية والتواصلية ويترتب عن ذلك هدم وتجاوز لفكرة المرجعية والنقطة الثابتة، التي كانت أساساً للعلوم والفلسفات الكلاسيكية من ديكرات إلى باسكال، فالعالم أو المفكر داخل شبكة التواصل لم يعد له يقين سوى كونه منغمس في المكان المتعالي للتواصل، إن هذه الشبكة تمنحنا أشكالاً متعددة للتواصل، هنا - هناك، هو نفسه الآخر.

- يترتب عن هذه الفلسفة التواصلية عند ميشيل سير، الدعوة إلى تأسيس موسوعة علمية أو أنسيكلوبيديا تتجاوز التصنيف الكلاسيكي للعلوم، إن التفاعل بين العلوم المعاصرة والذي أنتج علوما ناشئة، أصبح كل علم يتضمن علوما فرعية تجمع بينها تفاعلات وتراطات، بل وحتى بين الفروع العلمية المتباعدة، فهنا جمع وتزاوج بين العلوم المتفرقة. في سياق فلسفة تواصلية تقاطعية لا قطاعية .

الهوامش:

1. أكاديمي من جامعة وهران.
2. Interview, « Michel Serres », Ceras - revue Projet n°274, Juin 2003. URL: <http://www.ceras-projet.com/index.php?id=1537>.
3. -serres , michel : l interference , p, 20.
- ترجمة أوردها يوسف تيبس ضمن دراسة حول تاريخ و فلسفة العلوم عند ميشيل سير بمجلة عالم الفكر.
4. مهيبل عمر، الخطاب الفلسفي الجديد في فرنسا، دراسات فلسفية، مجلة سداسية متخصصة يصدرها معهد الفلسفة بجامعة الجزائر السنة الأولى، العدد الثاني، السداسي الثاني، 1996، ص113، 112.
5. أنظر جاييس غليك، نظرية الفوضى، علم اللامتوقع ، مرجع سابق ، ص : 360، 361.
6. المرجع السابق ص 22.
7. حوار أجراه أحمد الشيخ مع ميشل سير نشر على الموقع الإلكتروني حكمة على الرابط : ميشيل- سير- السيطرة-على-الطبيعة-هاجس-وعبي <http://www.hekmah.org/portal>
8. SERRES, Michel. Hermes IV – La distribution. Paris: Minuit, 1977. Str.p 103.
9. Dieudonné J. : OEuvres mathématiques, tome 1, Hermann, Paris, 1981 .
- نقلا عن مقال: نيكولا بورباكي وهشاشة الرياضيات، أبو بكر خالد سعد الله، المدرسة العليا للأساتذة، قسم الرياضيات، القبة، الجزائر.
10. انظر نيكولا بورباكي وهشاشة الرياضيات، أبو بكر خالد سعد الله، المدرسة العليا للأساتذة، قسم الرياضيات، القبة، الجزائر.
11. تيبس يوسف، تاريخ وفلسفة العلوم عند ميشيل سير، عالم الفكر، العدد 4 المجلد 30 ، 2002.
12. serres . m , . l interference, p:47.
13. عالم الفكر ، مرجع سابق ص 173.
14. خمسون مفكرا أساسيا من البنيوية إلى مابعد الحداثة ، مرجع سابق ، ص 182.
15. serres . m , . l interference, p:20.
16. تيبس يوسف ، تاريخ و فلسفة العلوم عند ميشيل سير ، مرجع سابق.
17. serres . m , . l interference, p:155.